طيور طويلة الأرجل[1]

(1)

كتب البروفيسور (فرانز كلام) تقديمًا مُختصَرًا في مجلة (ستيلزفوغل) العلمية، يقولُ فيه إن الدكتور (لودفيج بوتوس) [2] قد انتقلَ من مدينة جوتينجن إلى (هوايلين–ناكوين) وليس له إلا هدف وحيد، هو الدراسة الحقلية لما أسماه بالجاذبية الاستيعابية للطائر طويل الأرجل، المعروف باسم (كاليجويناس)، وهي تسمية تُجمع عليها الدوريات الاسبانية المتخصصة، وسوف نستخدمها هنا.

ويسد ما جاء في تلك المجلة فجوة واسعة في معرفتنا بهذا الموضوع. فلم يكن معروفًا عن كاليجويناس إلا القليل، قبل أن يجري الدكتور بويتوس دراساته المستفيضة، التي شغل عرضُها ثلث حجم ذلك العدد من المجلة. والحقيقة أن المجتمع العلمي كان يفتقد، قبل أن تنشر ستيلزفوغل عن هذا العمل، الأساس الموثوق الذي يمكن أن يُستند إليه عند إجراء مزيد من البحوث؛ فلم يكن ثمة غير دراسات نوعية جزئية أجراها "بولوفيك" و"بالبون" و" لورينسينا"، وغيرهم، شابتْ أعمالَهم ادعاءات مزاجية تفتقد الإسناد.

---

1 – العنوان الأصلي للقصة An Enlightening Book

2 – شخصية متواجدة في قصص كثيرة للكاتب، خاصة تلك التي يرتكز فيها على قضايا علمية.

ويبدأ الدكتور بويتوس عمله بأن يورد فرضية قد تكون مثيرة للجدل، وهي أن السمة الرئيسية للكاليجويناس هي شخصيته القوية للغاية. وهو يستخدم مصطلح (الشخصية) على نحو ما حدده (فوكس) وأتباعه. وهي – ببساطة – شخصية على درجة من الفعالية تجعل غيره من الحيوانات المتواجدة في حضرته تقلده في سلوكه تمامًا.

وتستوطن طيور كاليجويناس بحيرة (هوايلين–ناكوين)، على وجه التحديد، حيث يطيب لها العيشُ، وثمة تقدير لتعدادها هناك يربو على المليون طائر، ويساعد على ازدهارها وجود قانون محلي يجعل صيدها غير قانوني، ومن جهة أخرى، فإن لحمها غير مستساغ كغذاء، وليس لريشها استخدام صناعي. وتشترك مع غيرها من الطيور طويلة الأرجل في الاغتذاء بالأسماك والضفدعيات ويرقات البعوض وحشرات أخرى.

ومع أنها تمتلك أجنحة متطورة جدًا، فنادرًا ما تطير، وإن فعلتْ لا تتجاوزُ حدود البحيرة. ولها نفس حجم طائر (اللقلق)، وإن كانت مناقيرها أكبر قليلًا، كما أنها لا تهاجر. وتتخذ ظهورُها وأجنحتُها اللون الأسود المائل للأزرق، أما رؤوسُها وصدورها وبطونها فصفراء مائلة للابيضاض. والأرجلُ صفراءُ باهتةٌ.

وموئل هذه الطيور بحيرة (هوايلين–ناكوين)، وهي ضحلة ولكن واسعة. ولما كانت البحيرة تفتقد للجسور، برغم وجود عروض كثيرة لإنشائها، فيجد السكان المحليون أنفسهم مضطرين لقطع مسافات طويلة حتى يصلوا إلى

الجانب الآخر للبحيرة. وقد ترتب على ذلك تقديمُ شكاوى للصحيفة المحلية بصورة شبه مستمرة، ولكن بقي الاتصال بين شواطئ البحيرة نادرًا إلى حدٍّ ما.

وقد يتصور مراقبٌ غير مُطَّلِعٍ أن بمقدور السكان عبور البحيرة بسرعة وسهولة إن استخدموا سيقانًا خشبية، أو حتى بدونها، إذ تكاد المياه في أعمق نقطة بالبحيرة تصلُ إلى خصر رجل متوسط الطول.

وربما يكون السكان المحليون قد أدركوا – ربما بالبداهة، لا أكثر – القدرة الاستيعابية للكاليجويناس، فحقيقة الأمر هي أنهم يفضلون ألا يعبروا البحيرة، مختارين بدلًا من ذلك، كما سبق أن أوضحنا، الالتفاف حولها، إذ أنها محاطة بطريق اسفلتي ممتاز.

(2)

واستمرَّ، برغم ذلك، تأجيرُ السيقان الخشبية للسائحين، ليصبح الجانبَ الأهم الوحيد في اقتصاد (هوايلين–ناكوين)، وهو وضعٌ قد يكون مُبرَّرًا، نظرًا لندرة الموارد الأساسية في المنطقة. إلا أنه، مع عدم وجود منافسة حقيقية، وغياب التسعيرة الرسمية، أصبح تأجير السيقان الخشبية عملًا باهظ التكاليف فعلًا، فلم يجد العاملون في هذا المجال بُدًا من رفع الأسعار التضخمية إلى مستويات جسيمة، كطريقة وحيدة لتعويض خسائرهم المُحقَّقة.

والواقع أن ثمة نظامًا محدودًا بدرجةٍ ما، في (هوايلين–ناكوين)، يُلزمُ المحلات التي تؤجر السيقان الخشبية بأن تُعرضَ لافتةً مكتوبة بحروف كبيرة، وتوضع في مكان مفتوح، تحذِّرُ من أن استخدام السيقان الخشبية قد يؤدي إلى تغيرات نفسية خطيرة نوعًا ما.

ولا يميلُ السياحُ، بعامةٍ، إلى أخذ مثل هذه التحذيرات في الاعتبار، ويتعاملون معها، في معظم الأحيان، على أنها مُزحة. وتجدرُ الإشارةُ إلى أمر بسيط، وهو أنه لا سبيل إلى التأكد من أن كل السائحين يقرأون هذه التحذيرات، حتى عندما يمتثل أصحاب المحلات للنظام، كما هو حادث فعلًا بصورة لا تُنكر، ويضعون التحذيرات في أماكن واضحة للغاية.

والواضح أن السلطات لا مرونة لديها في هذه النقطة. وصحيحٌ أن حملات التفتيش لا تجري على نحو متواتر، كما أنها تكون مسبوقة بتحذير يتم إرساله قبل قيامها بدقائق قليلة، غير أنه معروفٌ عن المفتشين مراعاةُ الضمير في القيام بمقتضيات وظائفهم؛ وربما كان من قبيل المصادفة، لا أكثر، عدمُ وجود حالة واحدة مسجلة لصاحب متجر عوقب وفقًا لهذا النظام.

وما إن يحصل السائحون على السيقان الخشبية، يتوجهون إلى بحيرة هوايلين–ناكوين، إما فُرادَى، أو في مجموعات تثرثر مبتهجة، مكونة من اثنين أو ثلاثة أو خمسة أو عشرة، مستهدفين الوصولَ إلى الشاطئ

المقابل، حيث يمكنهم أن يشتروا علب أسماك رائعة بأسعار معقولة جدًا، ويمثل هذا المنتج المصدر الرئيسي للدخل لسكان ذلك الجانب من البحيرة. ويتقدم السائحون، في أول مائتين أو ثلاثمائة متر من البحيرة وهم يضحكون ويتصايحون في حبور، ويتبادلون النكات، ويُخيفون الكاليجوينات، وهي مخلوقات عصبية للغاية، مثلها في ذلك مثل كل الطيور طويلة الأرجل. ولا تلبث ضجة السائحين أن تخف تدريجيًا وهم يخوضون مياه البحيرة الأعمق فالأعمق، بينما تزداد كثافة أعداد الكاليجوينات مترًا بمتر، وسرعان ما تبلغ كثافتها حدّاً يعوق تقدم السائحين، كما أنها تكف عن الهرب والتحليق بعصبية. ويبدو أنها – مع تزايد أعدادها – تزداد ثقةً، وإن كان من الممكن تفسير سلوكها بحقيقة أن معظم أشكال الحركة، في هذه الأثناء، يصبح مستحيلًا جسديًا.

وأيًّاً كان الأمرُ، فإن لحظة تجيئُ، يُصبح الصياحُ فيها غير مُجدٍ، وتبرز الحاجةُ إلى استخدام العُصِي والأيدي لإبعاد الكاليجوينات.

وفي ذلك الحين، يرضى السائحون بقليل من الأرض، كما أنهم لا يلبثوا أن يصمتوا، ويكفون عن إطلاق النكات والضحكات. وعندها، فقط وليس قبل ذلك، يتناهى إلى أسماعهم صوت طنين يتصاعد من حلوق آلاف الكاليجوينات، ويملأ البحيرة بأكملها. وهو صوتٌ لا يختلف في طبيعته كثيرًا عن صوت الحمام، وإن كان أشد كثافةً بكثير. وهو يدخلُ إلى آذان

السائحين، ويتردد بداخل رؤوسهم، ويستولى على عقولهم بأكملها، حتى أنهم يبدأون تدريجيًا في إصدار طنين.

ويكون طنينهم، في بادئ الأمر، تقليدًا رديئًا لطنين الطيور، إلا أنه سرعان ما يصبح من المستحيل التمييز بين طنين البشر وطنين الكاليجوينات. وإذ ذاك، يحدث، في كثير من الأحيان، أن يبدأ السائحون في معايشة إحساس بالاختناق، ولا يمكنهم تبيُّنُ أي شيء، في مدى رؤية أعينهم، غير الكاليجوينات، ثم لا يلبثوا أن يفقدوا القدرة على التمييز بين الأرض ومياه البحيرة. وكانوا يرون في كل الاتجاهات منظرًا متكررًا بلا نهاية، ورتيبًا، لصحراء ملونة بالأبيض والأسود، ومكونة من أجنحة ومناقير وريش.

ويوجد بين السائحين، في العادة، وخصوصًا عندما يتواجد عدد كبير منهم في البحيرة، فرد واحد يدرك مدى الحكمة والتوافق في العودة إلى هوايلين–ناكوين والتضحية بالمرتقب من جولات شرائية للأسماك الرائعة، معقولة الأسعار، من الشاطئ المقابل.

(3)

ولكن، أين هو الشاطئ المقابل؟. وكيف تتيسر لهم العودةُ إن كانوا قد فقدوا كل تصور للاتجاه الذي قدموا منه؟. وكيف يستطيعون الرجوع في غياب أي نقاط مرجعية، واصطباغ كل الأشياء بالأبيض والأسود، في مشهد متكرر بلا نهاية، مكون من أجنحة ومناقير وريش؟. ويا للعيون! .. مليونا عين وامضة.

ومع أن كل الدلائل تقولُ بأن العودة لم تعد خيارًا، فإن سائحًا، هو الأكثر صراحةً، أو بالأحرى الأقل هدوءًا، يقدم لرفاقه بعض النصائح المثيرة للشفقة، فيقول: أيها الأصدقاء، دعونا نعود بالطريقة التي أتينا بها!. ولكن رفاقه لايمكنهم تفهم نعيبه عالي النغمة، المغاير تمامًا للطنين الرقيق الذي اعتادوا عليه الآن.

وإذ ذاك، وحتى إن هم ردوا بنفس أصوات النعيب المبهمة، فإنهم يدركون في قرارة أنفسهم حقيقة أنهم بشريون. وعلى أية حال، فإن الخوف يكون قد أصابهم بالتشوش، فيبدأون ينعبون في وقت واحد. وللأسف، فإن هذه الجوقة من الناعبين تفتقر لمحتوى ذي معنى، وحتى إذا أرادوا أن يكون لها معنى، فإن السائحين لم يعودوا يستطيعون أن يتناقلوا ما لديهم من فكر حاسم ونهائي، بأنهم كلهم كاليجوينات.

وكان شيوخُ مجتمع الكاليجوينات، حتى هذه اللحظة، قد التزموا الصمت عن قصد، فيبدأون الآن في النعيب بكل قوتهم. إنه نعيب المنتصرين، وصرخة النصر التي تبدأ من تلك الدائرة الداخلية وتنتشر بسرعة وصخب، بطول وعرض البحيرة، وإلى ما وراء حدودها، حتى أبعد منازل في البلدة القريبة.

ويضع السكان المحليون أصابعهم في آذانهم وهم يبتسمون. ولحسن الحظ، فإن الضوضاء لا تكاد تستمر إلا لنحو خمس دقائق. وما إن تتوقف

تمامًا، يعود التجار إلى تصنيع الكثير من أزواج السيقان الخشبية، مع دخول السائحين إلى البحيرة.